قصة قصيرة

مدينتي

◆ عبدالسلام المودني/ المغرب

الإرهاق ينز من جسدي في نزولي مصعد المصنع الذي يتلقفني كل صباح ليتقيأني كل يوم في مثل هذا الوقت كتلة بشرية تضج تعباً وترقبا. رفقة أجساد أخرى تصحبني إلى الأسفل، أنتظر ارتطام المصعد بالأرض وتلك الإشارة الخضراء التي تلقيني إلى أخرى حمراء علي ألا أتجاوزها حتى يسمح قانون الألوان بذلك. وفي انتظار ذلك علي ألا أفكر كثيراً في اليوم الذي خلفته ورائي والذي لا يعني لي شيئاً جديدا.

لا تغيير اليوم أيضاً في الشارع. حافلات تصطف بنظام مقرف. أجدّ في البحث في لوحاتها عن الرقم 5739106284 وهو هويتي الوحيدة في هذه المدينة التي قررت ألا تخلط بين بنيها تحسباً لأمر أجهله وتخشاه.

بين أرقام كثيرة تمثل هويات أناس آخرين، ألفيت رقمي منتصباً على لوحة معدنية لواجهة حافلة متجهمة. أصعد مسرعاً خوفاً من أن يقفل الباب دوني فأضيع كما يحدث كل يوم لوجوه تدوسها المدينة وتلقي بها إلى وهاد الضياع السحيقة.

كان علي أن أبحث عن المقعد المطابق لرقمي فوجدته يساراً جوار سيدة بدا وجهها أليفاً حتى أني كدت أحييها لولا خوفي من أداء ضريبة التطفل التي تنشط هذه الأيام.

بتهالك مشروع ألقي مؤخرتي فبدوت محاصراً بين زجاج النافذة المحكم الإغلاق ووجه السيدة المألوف، لاشك أن رقمينا متقاربين لأراها في اليوم أكثر من مرة. أغالب خدر عيني. أقاوم شرودي أيضاً. عليّ أن أركز على الإشارة الضوئية المقابلة لمقعدي، الوحيدة المسموح لها بمخاطبتي. والحوار بيننا من طرف واحد، وهو مقتضب على كل حال. إذا كان وجهها ممتقعاً فعلي ملازمة مكاني، أما إذا اخضرت وأينعت فعلي النزول والبحث عن إشارة أخرى أنصت بكل أدب لأوامرها و أطبقها دون تفكير و إلا فقد إلى الأبد.

حافلة مماثلة تنزلق أمامنا. ألمح وجه مديري في العمل. بدا غريباً جداً إذ ابتسم كل وجهه بل مضى به الأمر أبعد من ذلك فرفع يده محيياً. أعرفه دائم التجهم سليط اللسان، لا يراني إلا ليسبني أو ليأمرني. وددت أن أرفع يدي محيياً بيد أني أتراجع مأخوذاً بالوجه الذي ظهر خلفه للسيدة الجالسة جواره. أحسست قلبي يرتعش كقط أصابه البلل. كل ما أعرفه عنها، أنها تعمل بنفس المصنع الذي يقتات من أيامي. أخمن أن اسمها ماري، وأنها تنتمي لقبيلة المدراء. لم أرها منذ مدة طويلة و كم أملت أن يقترب طريقانا يوما. أبتسم في وجهها يتكدر وجه مديري. ظن المسكين أنه المقصود بذلك. لاشك أن عداءه لي سيزداد، وأن غدي سيكون أطول من اليوم. قررت أن أوقفه إذا تمادى وأراد ضربي. لو يمهلني فقط فرصة لأفهمه أنه لم يكن المقصود. أعلم أن يده طائشة لكن علي أن أتشبث بالأمل. لعل غضبه ناجم عن عدم ردي على تحيته. تنتشلني زفرة حارة تعفو عنها السيدة جواري. ألتفت نحوها. هي أيضاً ترفع يدها محيية مديري. فهمت الآن سبب كدره. السيدة التي تجلس جواري طيلة أيام السنة، ذات الوجه المألوف هي زوجة مديري التي سمعت أنه يعشقها كثيراً وأن كل طلباته بجعل رقميهما متلائمين باءت بالصد والرفض. أفهم الآن تلك التحية فهي جد مشروعة في قوانين المدينة و لا يحق لغير الأزواج استعمالها. أتساءل: كم لهما من الأبناء نتيجة لهذه التحية الحميمة؟

في إحدى وقفات الحافلة، يبرق الضوء الأخضر أمامي، فأهب من مقعدي مسرعاً كما السيدة جواري التي اخضرّ لونها أيضاً. أجدّ مرة أخرى في البحث في بوابات العمارات المتراصة أمامي عن رقمي كما كل النازلين في هذه المحطة من حافلتنا ومن الحافلات الأخرى التي ابتلعها المدى القريب. العمارات تتشابه ولا تستقر في مكان معين. تراها تغير موطنها كل صباح، ولا تمنح لنفسها فرصة لنتآلف معها أو تختزنها ذاكراتنا المقلّمة. أتنفس بارتياح عندما تقع عيناي على رقمي معلقاً إلى جانب أرقام أخرى عند بوابة إحداها، فتفتح أمامي عندما يتعرفني نظام الحماية فيها، فيزيح الأخضر الأحمر.

أعني يومياً قلقاً مزمناً وخوفاً من أن أصل متأخراً إلى بوابة العمارة كما حدث لأمي التي شاهدت ما جرى لها على جهاز التلفاز في أخبار الحوادث إذ التقطها النظام، وتلقفها التشرد ولاكها الضياع. أرثي لحال المطرودين والمنبوذين والمنفيين من قبل النظام الذين حاولوا تتبع حركات المباني الغريبة ومسارات خطوها الليلية العجيبة، فهي أحياناً لها حركة دائرية، وأحياناً أخرى تتقدم أو تتأخر، وسمعت من أحدهم يوماً أنها تهرول وقد تعدو أو تنط لكني لم أثق به فربما هو مدسوس من قبل النظام أو ممسوس به. مهما يكن الأمر، فأنا أكيد أن أمي فقدت كما آخرين كثر في مدينة عقيدتها الوحيدة النظام.

للشقق أيضاً حركاتها العجيبة داخل نفس المبنى. البارحة فقط، كانت شقتي في الطابق الأرضي وهذا المساء أجد رقمي طبع على باب في خامس طوابقها، ولن أفاجأ إن أصبحت في مكان آخر، بل هذا ما سيحدث قطعاً.

كان علي أن أطيل انتظاري أمام باب شقتي هذه المرة، ما دفعني إلى الاضطراب إذ ذهبت بي الظنون مذاهب بعيدة. خشيت أن أفقد هكذا داخل مبنى ضخم لن أفلح من الخروج منه أو مغادرته. بدا يشبه مقبرة كبيرة أو متاهة محكمة الإغلاق على نفسها. أفاقني الضوء الأخضر الذي ابتسم في وجهي في نفس الوقت الذي فتح باب شقتي. قدرت أن إدارة المدينة تعمل على إخافتي، أتصور أن المسؤولين غاضبون مني. علي أن أتوقع كل شيء منهم ويتعين تقويم سلوكي أكثر. أدخل مسرعاً، وأعمل على تغيير ملابسي كما تقضي بذلك قوانين الشقق. أقف بين باب المطبخ وباب

الحمام. إشارتهما حمراء. أخمن أن السيدة التي كانت تستعمل الحمام بينما المطبخ تحت رحمة أحدهم. دخلت شقتي بنية الاستحمام أولاً استعداداً للاحتفال هذه الليلة بيد أن أخضر باب المطبخ أطل برأسه فجأة مرجحاً كفته. أفتح الثلاجة. أين حلوى عيد الحب؟ أذكر أني تركت ورقة أطلب فيها كالعادة ما أريد. فلم لم يستجيبوا لمطالبي هذه المرة؟

أصفق باب الثلاجة بعنف. أجد ورقة فوق طاولة وضع فيها طعام معلب. أقرأ غضباً: لأنك قليل التركيز، كثيرا الشرود في المدة الأخيرة، زد على ذلك أنك تفشي أسرار مدينتنا لقرائك، فقد تغاضت الإدارة عن طلبك هذه السنة عقاباً لك، وفي حال التصعيد ستكون الخاسر الأوحد.

أجلس كاتماً غيضي. أحاول أن آكل قبل أن اهوي جوعاً رغم أني فقدت شهيتي. لا طعم للأشياء من حولي. قبل أن أتم أكلني، يصلني صوت باب المطبخ يفتح. لم أنتبه للضوء الأخضر إذ الغضب أفقدني بعض تركيزي. أخرج مسرعاً قبل أن يقفل الباب. أفكر أني عوقبت على إظهار عدم رضاي على قرار حرماني من الاحتفال هذه السنة، أو أن مطبخي على موعد مع حبيبته في مكان ما فأراد التخلص مني مبكراً.

أدور حول نفسي في المنطقة الخضراء من شقتي، أنتظر أن يتحسن مزاج حمامي، ليصعد إليّ، أو لينزل أو ليتحرك يميناً أو يساراً، أو ليعود من جولة لست أدري أين قادته. على كل حال، تعودت على مشاكساته، وأستطيع كتمان رغبتي في الدخول إليه كأشياء كثيرة أقبرها في داخلي.

تعفو النافذة عن ليل يزحف ببطء ليذكرني باحتضار يومي، أقترب منها أكثر. أرنو بناظري إلى ضوء خافت تسلل من نافذة مواجهة لشقة في خامس طوابق بناية مقابلة. الضوء لشمعة تتراقص حول طيف بدا يحتفل وحيداً. دق قلبي بقوة وأنا أتصور أن ماري تذكرت عيد الحب وهي تحتفل به على أمل أن نلتقي يوماً.

أخمن أن طلباتها لجعل رقمينا متلائمين تقابل صداً ورفضاً.

أشاركها بصمت احتفالنا ككل سنة مع اختلاف بسيط هذه المرة إذ شردت أكثر من اللازم حتى أنهم منعوا عني الحلوى والشمعة. أرفع يدي محيياً وأنا أعلم أني سأنال توبيخاً جديداً لكن ذلك لا يهم. أبتسم بيأس وأنزل يدي عندما أدرك أني أقبع في الدمس بعدما قطعوا النور عني. أفكر أن أكتب خطاب احتجاج، ترتد إلي رغبتي هذه خاسئة إذ أتذكر مصير خطاباتي السابقة كما أني سأعترض حتماً للمزيد من المتاعب.

يناديني ضوء أخضر ينبعث من سريري. أهرول إليه. ألقي بجسدي التعب. أعلم أن الوقت مبكر هذه الليلة، وبأني أحتاج إلى تأمل طيف ماري أكثر وقت ممكن لكن ما الذي أملكه أمام هذا النظام الجائر؟

أغمض عينيّ مجبراً. باب هلامي تصيبه عدوى لون الربيع يشرع أمامي. أقرأ ضجراً. مدينة الكوابيس.

لا لا أستطيع أن أستمر هكذا. تخر مقاومتي. كل هذا لا يحتمل. أفتح عينيّ. يرسل تحذير ضوئي. لا لن أنحني للأوامر مرة أخرى، وليكن ما يكون. أقوم من فراشي. يرسل تحذير أكبر. أتجاوز المنطقة الخضراء. صفارة الإنذار تمزق الليل. أفتح النافذة. ماري تنام مستكينة لكوابيس المدينة الجبارة. صفارة الإنذار تعوي. تختلط الأصوات أمامي. أفتح عينيّ دهشاً و أنا أرقب مديري القاطن تلك الليلة تحت شقة ماري يفتح نافذته ويلوح بيده محيياً. لا اختلاف إذن حول من يحتل الشقة تحتي.

أصرخ ملء صوتي. تنطفئ الأشياء حولي. ينهار النظام أمامي، من هناك ألمح الشمس تستيقظ.